1

إِحصل على الذَّهب بأي ثمن

لو أن الذَّهب كان أَكثر وفرة على الأَرض ـ كالملح مثلاً ـ فإِنَّه ربما لم يكن ليتمتّع بتلك القيمة والأَهميَّة رغم جماله وخصائصه الفيزيائية الفريدة. ولكننا نرى أن الذَّهب اكتُشف في كل القارات على وجه الأَرض. قد يبدو ذلك تناقضاً، لكنه ليس كذلك. فمع أن مكامن الذهب واسعة الانتشار، بشكل أَو بآخر، إِلاَّ أن أياً منها لم تكن لتهب الذهب الكامن فيها بسهولة، فالعثور على الذَّهب وإِنتاجه يتطلبان جهوداً كبيرة بالمقارنة مع مقدار المعدن الأصفر البرَّاق الذي يتبدى للعيان في نهاية العملية.

فمن أجل الحصول على الإِنتاج السنوي من الذَّهب في جنوب إِفريقيا، مثلاً، والبالغ خمسمائة طن تقريباً، يتطلَّب الأمر استخراج وطحن سبعين مليون طن من التراب ـ أي كمية تفوق كمية المادة التي تشكِّل هرم خوفو[1]. صحيح أن مناجم جنوب إِفريقيا هي الأسوأ من نوعها، ولكن جميعنا يعرف قصص الباحثين عن الذَّهب في أربعينات القرن التاسع عشر وهم يقومون يوماً بعد يوم بغسل التراب في مياه كاليفورنيا لينتهي بهم الأمر إِلى الحصول على القليل من قطع الذَّهب، وقد وصف ويل روجرز الوضع بعد عودته من زيارة منطقة

obeikandl.com

كلونديك بقوله: «هناك فرق كبير بين التنقيب عن الذَّهب والتنقيب عن السبانخ»[2].

ولم يؤدِّ هذا الخلل الكبير في معدل الجهد إِلى المردود إِلى ثني الناس عن السعي وراء الذَّهب في كافة أنحاء العالم ـ ولربما شكَّل ذلك أوضح دليل على المكانة الرفيعة والحيوية التي يتمتَّع بها الذَّهب منذ أقدم العصور، وعلى كونه مادة أساسية لا تقاوم. وقد تميّز السعي وراء الذَّهب بالجشع حتى في الأساطير، كما سنعرف من خلال هذا الفصل.

رغم أن الذَّهب لا يختلط بغيره من المعادن، إلاَّ أن هناك عروقاً متفرقة منه تتوزَّع عبر الجبال حيث ملأ الغرانيت والكوارتز تلك التصدعات الموجودة في قشرة الأَرض ليتم ضغطهما معاً فيما بعد بفعل الحرارة الشديدة عبر ملايين السنين. وقد قامت العوامل الطبيعية بجرف هذه التصدعات وبعثرتها بمرور السنوات، لكن الذَّهب احتفظ بصفائه رغم تعرّضه لتأثير القوى المخربة في الطبيعة. وانساب الكثير منه عبر الجداول الجبلية، وكانت كثافة الذَّهب العالية ووزنه يؤدّيان إِلى فصله عن بقية المواد الموجودة في الماء. حيث كان يترسَّب في القاع بشكل شذرات أَو يتدفق معها على هيئة مسحوق ناعم كالتراب.

وبالمقارنة مع الحاجة إِليه، يبدو الذَّهب وكأنَّه كان أَكثر وفرة في العصور القديمة، وبخاصة في مصر والشرق الأوسط، منه في عصر الرومان وما تلاه. فقد كانت كمية صغيرة من الذَّهب تكفي للعديد من الأغراض عندما كانت تستخدم للتزيين والزخرفة فقط لا لسك النقد أَو للادخار: كان المصريون يستخرجون من المناجم طناً واحداً فقط في السنة[3]. وكان معظم الذَّهب المتوفِّر موجوداً في حوزة الملوك ورجال الدين إِلى أن جاء الوقت الذي تطور

فيه النقد، وهو ما جعل الذَّهب ينتقل إِلى أيدي عامة الناس لتزداد الحاجة إِليه. وكان استخدامه شعائرياً إِلى حد كبير، فقد كان وسيلة لعرض القوة والثروة والمكانة الرفيعة والقرب من الآلهة. أَمَّا الكمية المتبقية فكانت تستخدم للمجوهرات وللأشكال الأخرى من الزينة الشخصية.

عندما هبط موسى [عليه السلام] من جبل سيناء ليسلم الوصايا العشر لشعبه، وجد اليهود في حالة هياج وهم يعبدون عجلاً مصنوعاً من الذهب. وقد كان غضبه شديداً لرؤيتهم ينحنون أمام معبود يشبه آلهة أعدائه المصريين بحيث أنَّه حطم الألواح التي كانت تحوي كلمات الرب ـ الوصايا العشر ـ التي كان قد جاء بها لتوه من جبل سيناء. وتكشف لنا القصة أن اليهود رغم كونهم عبيداً، كانوا يحملون كميات وافرة من الذَّهب. لم يكن قد خطر لهم أن يستخدموا ذهبهم في شراء حريتهم في مصر، بما أن الذَّهب لم يكن يعتبر نقداً في ذلك الوقت، ما كانوا ليجدوا سوى قلائل ممن يقبلون به. وحتى لحظة صهر ذهبهم ليصنعوا منه العجل، كانوا يستخدمونه لتزيين آذانهم وأذرعهم وأعناقهم.

إِن ذكر الذَّهب أَكثر من أربعمائة مرة في الكتاب المقدّس يؤكد حقيقة وفرة الذَّهب في ذلك الوقت. فقد قال أيوب الصابر: «إِن كنت قد جعلت الذَّهب عمدتي أَو قلت للإِبريز أنت متكلي. إِن كنت قد فرحت. . . لأن يدي قد وجدت كثيراً. . . فهذا أيضاً إِثم يعرض للقضاء، لأنني أكون قد جحدت الله من فوق»[(4)]. أَمَّا إِبراهيم، مؤسِّس الأمة الحنيفية، فقد وُصف في سفر التكوين 13 بأَنَّه «كان غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب». وقد زود الخادم الذي ذهب لاصطحاب رفقة بآنية مليئة بالذَّهب، بما في ذلك قرط للأنف.

عندما صعد موسى إلى جبل سيناء لتلقي كلمة الرب، كلفه الرب بأكثر من مجرد مهمة نقل الوصايا العشر والقواعد المرتبطة بها. فقد أصدر تعليمات دقيقة بشأن تشييد الحرم المقدس الذي يجب أن يعبده فيه اليهود، إضافة لتابوت العهد الذي سيوضع ضمن الحرم. بدأ الرب مباشرة بأن حدد «وتغشيه بذهب

نقي، من داخل ومن خارج تغشيه، وتضع عليه إكليلاً من ذهب حواليه». كانت تلك مجرد بداية: فقد أمر الرب أن يكسو الذهبُ الخالص حتى الأثاث والقطع المثبتة والعناصر الزخرفية كتماثيل الملائكة. وتضم التعليمات المذكورة بين الإصحاحين 25 ـ 28 من سفر الخروج، ما يقارب ثمانين مقطعاً تتعلق بالقياسات التفصيلية المضنية وبالتصاميم.

ويبدو أن اليهود بمجرد أن استقروا في أرض الميعاد، بدأوا بتجميع كميات كبيرة من الذهب الذي كانوا يحصلون عليه في معظم الأحيان من نهب القبائل التي كانوا يهزمونها في المعارك. فقد استولى موسى وقواته على ما يزيد عن ثلاثمائة باوند من الذهب من الميديانيين: «مجوهرات ذهبية وخلاخيل وأساور وخواتم وأقراط وأساور للأذرع»[5]. وكان الذهب يلمع على الجدران الداخلية لهيكل سليمان الكبير (الذي يشكل حائط المبكى الحالي في القدس جداره الغربي)، والذي كان يبلغ طوله 135 قدماً، وعرضه 35 قدماً وارتفاعه 50 قدماً، وكان مقسماً إلى ثلاث حجرات. وقد أغرم سليمان بإغراق ممتلكاته الخاصة بالذهب: كانت دروعه مصنوعة من الذهب، كما كان عرشه العاجي مطعماً بالذهب، وكان يرشف الشراب من آنية ذهبية[6]. وعندما جاءت ملكة سبأ لتزور سليمان، جلبت معها كمية من الذهب (كمن يحضر فحماً إلى مدينة نيو كاسل) قدرت بثلاثة أطنان ـ أي ما يساوي أكثر من 20 مليون دولار بالأسعار الحالية[7].

اختفى الحرم المقدس وتابوت العهد اللذين بناهما موسى بحسب المواصفات المفصلة التي وضعها الرب، كما طُمست آثار هيكل سليمان الضخم المكسو بالذهب. ولكن في سنة 532 ميلادية، وبعد أن عمل عشرة آلاف رجل لمدة ست سنوات واستخدموا ما يزيد على اثني عشر طناً مترياً من الذهب لبناء كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية، كان بإمكان الامبراطور البيزنطي جوستنيان ـ الذي أشرف على العملية بكاملها ـ أن يصرح قائلاً: «لقد

تفوقت عليك يا سليمان»[8] كان جوستنيان ضليعاً في أساليب استخدام الذهب، فقد ورث 320,000 باونداً من الذهب استخدمها بأكملها، ثم فرض ضرائب على رعاياه لدفع نفقات جيوش المرتزقة ولتمويل الأعمال العامة، وأخيراً، وهو الأهم، لإرضاء أعدائه وثنيهم عن غزو المناطق الخاضعة له. إن استخدام الذهب للدلالة على قوة الكنيسة قد تكرر في الزخارف والفسيفساء الذهبية البراقة في كل أنحاء إيطاليا وإسبانيا، وحتى في السهوب الموحشة في روسيا.

لم يكن سليمان، ولا حتى يهوه نفسه، أول من استخدم الذهب للإيحاء بالمهابة. فقد كان قدماء المصريين هم المثل الذي سارت على هداه سائر الأديان الأخرى فيما بعد. كان الأمر بسيطاً بالنسبة لليهود الذين كانوا يؤمنون بإله واحد بالمقارنة مع المصريين الذين كان لديهم ألفا إله يجب القيام بواجباتهم، وكان للعديد من هؤلاء علاقة ما بإله الشمس ذي القدرة الشاملة. ومن أجل إقناع الجميع بمدى قوة ومعرفة ألفي إله يتطلب الأمر الكثير من الذهب. وقد واجه المسيحيون بدورهم مشاكل مماثلة، فهم لديهم إله واحد فقط للعبادة، ولكن لديهم أيضاً عدة آلاف من القديسين يجب التوجه بالصلاة إليهم.

كان استخدام الذهب في مصر امتيازاً يقتصر على الملوك، ولم يكن متوافراً لأحد ما عدا الفراعنة، وقد يسَّرت لهم تلك القيود انتحال أدوار مشابهة للآلهة وإضفاء المصداقية على شخصيتهم المقدسة عن طريق التحلي بالمادة التي كانت تزين آلهتهم. وكانت صناعة المجوهرات الذهبية في مصر فناً رفيعاً، حيث أُغدقت بسخاء على الملوك، الأحياء منهم والأموات.

وهناك مثال مثير للإعجاب عن استخدام الذهب لإظهار القوة قدمته امرأة من الفراعنة، كانت امرأة فاتنة وصفها عالم الآثار المصرية جيمس بريستد بقوله: «أول سيدة عظيمة في العالم» كانت حتشبسوت ابنة تحتمس الأول الذي كان أول فرعون دفن في وادي الملوك في طيبة سنة 1482 ق.م تقريباً. بعد

obeikandl.com

استيلاء حتشبسوت على السلطة من ابن أخيها وابن زوجها حوالي سنة 1470ق.م. تربعت على العرش حتى وفاتها حوالى سنة 1458ق.م. وكانت تُعرف بثمانين لقباً تقريباً، بما في ذلك ابن الشمس وحورس الذهبي (إله النور المصري). ورغم أنها قد رفضت أن تضيف إلى ألقابها اللقب الملكي التقليدي «الثور القوي» إلا أنها كانت تُصوَّر في معظم الأعمال الفنية المعاصرة لها بصورة رجل[9].

كانت حتشبسوت امرأة مثيرة للإعجاب بكل المقاييس. فقد عملت على تعزيز حركة التجارة بين مصر وكل من فلسطين وسوريا وكريت، وكانت هذه الحركة قد ضعفت خلال السنوات المائة والخمسين السابقة عندما كانت مصر محتلة من قبل الغزاة الآسيويين المعروفين باسم الهكسوس. ولم يتوقف التنقيب عن الذهب طوال فترة حكمها، حيث أخذت أعمال التنقيب تتجه أبعد فأبعد نحو الجنوب. ويمكن القول إنها قد وصلت إلى زيمبابوي الحالية.

كان ولع حتشبسوت بالذَّهب كبيراً، فقد أحبت تشييد الأبنية لدرجة تجعل لويس الرابع عشر وقصره الفيرساي يشعران بالخزي أمامها. كما كانت تحب أن تطلي وجهها بمزيج من تبر الذَّهب والفضة. وعندما قرَّرت إِنشاء نصب ضخم لآمون راع، إِلة طيبة الرئيسي، كان تصميمها الأصلي يتضمن عمودين من الذَّهب بطول مائة قدم تمكن رؤيتهما فوق جدران أبنية الكرنك، التي تغطي مساحة أكبر من مساحة الفاتيكان. وبعد أن أقنعها مستشارها بأن تكون أَكثر اقتصاداً، بنت العمودين من الغرانيت وغطَّت القمتين فقط بالذَّهب. ولكن حتى ذلك كان يتطلب كميات كبيرة منه. وعندما انتهى العمل، قالت: «إِن ارتفاعهما يخترق السماء... عندما تشرق الشمس بينهما، يغمر النور الأرضيْن... أنتم يا من سترون هذين النصبين بعد سنوات طويلة ستقولون: لا نعرف كيف أمكن لهم أن يصنعوا جبلين كاملين من الذَّهب»[10].

كان أَكثر الذَّهب في زمن العصور التوراتية ومصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة تقريباً قبل الميلاد، يأتي من الأراضي الوعرة الجرداء في جنوب مصر والنوبة، وكان المصريون يسمون الذهب nub. وقد استمرت النوبة في تزويد العالم الغربي بالذَّهب حتى القرن السادس عشر. واستناداً لأحد المصادر، فقد كان إِنتاج المناجم النوبية «يتجاوز إِلى حد كبير الكمية المستخرجة من كل مناجم العالم المعروف في العصور التي تلت، وحتى اكتشاف أمريكا»[11].

وكان المصريون قد طوَّروا تلك المناجم من خنادق قليلة الغور، وبمرور الوقت قاموا بحفر آبار عميقة معقدة في الهضاب. وكانت المعاناة البشرية في الداخل تزداد بازدياد عمق المنجم. ويقدِّم لنا ديودوروس، وهو رجل إِغريقي زار مصر خلال الفترة التي كان فيها يوليوس قيصر يحكم روما، يقدِّم أفضل وصف للفظائع التي كان يعانيها العمَّال في تلك المناجم. كان الهواء داخل سراديب المنجم نتناً، كما كانت الشموع النحيلة، والتي تكاد لا تضيء شيئاً في تلك العتمة الرهيبة، تستنفد الهواء باستمرار وكانت الحرارة لاهبة، وكثيراً ما كانت الأَرض تنهار إِضافة للمياه الجوفية التي كانت مصدر خطر دائم. أمَّا النَّار التي كانت تستخدم لشق الكوارتز في الصخر، فقد كانت تُطلق أبخرة الزرنيخ التي أدَّت إِلى حالات موت تعقب معاناة أوجاع فظيعة بين العديد من الأشخاص الذين كانوا يستنشقون تلك الأبخرة. وكان على العبيد أن يعملوا مستلقين على ظهورهم أَو جنبهم حتى الموت، هذا إِذا لم يُسحقوا تحت الصخور المتهاوية قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت وطأة الإِرهاق[12].

لا عجب إِذاً أن تكون العبودية واسعة الانتشار، وأن تكون الحروب مهمَّة، فقد كانت الانتصارات العسكرية تجلب أعداداً جديدة من العبيد للعمل في المناجم. ويقول ديودوروس إِن ملوك مصر لم يقتصروا على استعباد المجرمين الخطرين أَو أسرى الحرب، لكنهم استعبدوا حتى «أنسباءهم وأقاربهم» أيضاً، رجالاً ونساء وأطفالاً، تحت ضرب السياط ودون مأوى أَو رعاية مهما كان نوعها[13]. وبأسلوب يدل على الحذق، كان العبيد يعملون

تحت حراسة مرتزقة جرى استحضارهم من أُمم مختلفة. فنظراً لعدم وجود من يتكلم لغة العبيد من بين هؤلاء المرتزقة، لم تكن هناك ثمة فرصة أمام العبيد لرشوة الحرس أو للتآمر معهم بغية الهروب[14].

كان استخدام العمال هو الأسلوب السائد في التعدين حتى القرن العشرين، ما عدا تلك العملية التي ابتكرها الرومان في إسبانيا التي كانت هضابها المليئة بالذَّهب تشكِّل عماد الاقتصاد الروماني. كان الرومان، في الأصل، يستخدمون العمال للحفر حتى عمق يصل إلى 650 قدماً وذلك لاستخراج الذَّهب الخام من الريف الإسباني، لكنهم ووفق طريقة جديدة تُدعى الضرب الهيدروليكي Hydraulicking، قاموا باستخدام دفق قوي من الماء لكسر الصخر وكشف التراب الحاوي على الذَّهب. والمياه كانت تأتي من خزانات ضخمة على ارتفاع قد يصل إلى أربعمائة وحتى ثمانمائة قدم فوق الموقع. ورغم أن الطريقة كانت فعَّالة ومثمرة لدرجة بالغة الروعة، إلاَّ أنَّها أدَّت إلى جرف جبال بأكملها وتخريب المزارع وملء العديد من الأنهار والمرافىء بالطمي[15].

وكانت طريقة الضرب الهيدروليكي هذه تُستخدم أيضاً في بقية أنحاء أوروبا ولكن بأسلوب متفاوت، لكن أبرز عودة لاستخدامها كانت في كاليفورنيا سنة 1852، في ذروة فورة الذَّهب. وقد تم تقليد الأسلوب الروماني بدقة في منطقة ساكرامنتو، حيث كانت المياه تحت ضغط يصل إلى ثلاثين ألف غالون في الدقيقة تندفع بعنف إلى الجبال ومنحدرات الهضاب. الدمار الذي لحق بالبيئة كان هائلاً. فقد اختفت غابات ومزارع خلال وقت قصير، ووصل حطام الصخور إلى خليج سان فرانسيسكو مخلفاً وراءه أرضاً تكسوها أكوام الصخور ومنحدرات الجبال الجرداء. ورغم ذلك، بقيت طريقة الضرب الهيدروليكي هي الأسلوب الرئيسي لاستخراج الذَّهب في كاليفورنيا حتى سنة 1884، حين استطاع المواطنون الغاضبون منعها بقوة القانون.

وفي وقتنا الحالي وفي مناجم الذَّهب الضخمة في جنوب أفريقيا، يصل عمق بئر المنجم إلى اثني عشر ألف قدم كما تصل درجة الحرارة إلى 130° ف. ويصف أحدهم الوضع قائلاً: لإنتاج أونصة واحدة من الذَّهب الصافي يتطلب الأمر ثمانية وثلاثين رجلاً وساعة، و1400 غالون من الماء وطاقة كهربائية تكفي لإدارة بيت ضخم لمدة عشرة أيام، ومن 282 وحتى 565 قدم مكعب من الهواء المضغوط، وكميات من المواد الكيميائية تتضمَّن السيانيد والأحماض والرصاص والبوراكس والجير. «إن القوَّة العاملة المستخدمة في مناجم جنوب إفريقيا تتجاوز أربعة آلاف رجل، 90 بالمائة من هؤلاء هم من السود»[16].

لقد صاغ ملك إسبانيا فرديناند عبارة خالدة سنة 1511، إذ قال: «إحصل على الذَّهب. إن أمكن، بشكل إنساني، ولكن بأي ثمن ـ إحصل على الذَّهب»[17].

ليس كل الذَّهب بحاجة لأن يُستخرج من المناجم. إذ إنَّه عندما ينجرف مع الجداول الجبلية، يستطيع المنقِّب الخوض في الجدول وغربلة شذرات الذَّهب الخام التي انفصلت عن منحدرات الجبال. وقديماً كان يتم جمع الذَّهب بهذه الطريقة في آسيا الصغرى، حيث ظهرت العملة الذهبية لأول مرة بشكل رسمي. وبعد 3500 سنة تقريباً، بدأت موجة فورة الذَّهب في كاليفورنيا في القرن التاسع عشر على ضفاف نهر ساكرامنتو، عندما اندفع الباحثون عن الذَّهب إلى النهر بمعداتهم البدائية (لغسل) الذَّهب من التراب والحصى في المياه المتدفقة.

كانوا يطبِّقون أسلوباً يعود تاريخه إلى الإغريق القدماء، الذين كانوا يستخدمون جلود الخراف الصوفية لغسل التراب والحصى لاستخراج الذهب

من الأنهار ـ وكان الصوف ذو الجعدات الكثَّة على جلد الخراف خير وسيلة لاحتجاز شذرات الذَّهب من المياه التي كانت تتدفق مندفعة على منحدرات الجبال. إن ذكر الجزّة والذَّهب معاً يستحضر إلى الذهن مباشرة جيسون والجزَّة الذَّهبية، وهي أسطورة تستحق منا استطراداً موجزاً نظراً لمغزاها الأخلاقي[18].

كان فرايكسوس، وهو ابن ملك بويوتيا في شرق اليونان، يتعرَّض لسوء المعاملة على يد زوجة أبيه، ولهذا دبرت والدته أمر هروبه مع شقيقته على ظهر كبش مجنح جزته من الذَّهب الخالص، وهو هدية سخية كانت تلقتها من هرمز (لقاء خدمات لم تُذكر بالتحديد). ولم يكن بالإمكان أن تسير تلك الرحلة دون مصاعب، لأن الجزَّة الذَّهبية لا بد وأنَّها كانت تثقل حتى على كبش مهدى من هرمز. ويبدو أن شقيقة فرايكسوس أصيبت بغثيان الطيران، ونظراً لعدم توفّر وسائل الراحة الموجودة في الطائرة الحديثة، شعرت بالدوار ووقعت عن الكبش لتسقط في البحر، وقد سميت البقعة التي سقطت فيها باسمها، هيليسبونت.

أَمَّا فرايكسوس فقد واصل الطيران. وبعد رحلة قطع خلالها ما يزيد على الألف ميل، وصل إلى كولتشيس على أقصى الشاطىء الشرقي للبحر الأسود. ولسعادته بالوصول سالماً على قيد الحياة، قدَّم الكبش كأضحية لزيوس وأهدى الجزة الذَّهبية لملك تلك الأرض، آيتيس. سُرّ آيتيس كثيراً لأن عرَّافاً كان قد أخبره أن بقاءه حياً يتوقف على امتلاكه لتلك الجزَّة. لذلك، قام بتثبيت الجزة الذَّهبية بالمسامير إلى شجرة في بستان مقدس ووضع تنيناً مفترساً ضخماً ليقوم بحراستها.

وفي تلك الأثناء، وفي شمال بلاد اليونان، قرَّر ملك يُدعى بيلياس أنه من الأفضل التخلص من ابن شقيقه الوسيم والمحبوب جيسون، الذي كان يحاول الدفاع عن مطالبة عائلته بحقها في العرش. وقال بيلياس لجيسون أن بإمكانه الجلوس على العرش إذا قام أولاً بإنجاز عمل «يليق بعمرك الفتيّ ولا أستطيع أنا إنجازه نظراً لسنّي. . . أعدْ جزة الكبش الذَّهبي. . . وعندما تعود

بتلك الغنيمة الرائعة، ستكون المملكة والصولجان ملك يديك»[19]. لم يكن بيلياس ليحلم بأن ينجح جيسون ويعود يوماً ما بغنيمته الرائعة، بل على العكس، كان مقتنعاً بأن جيسون سيهلك في الطريق، أَو على الأقل، بين أنياب التنين الذي يحرس الجزَّة.

استطاع جيسون الحصول على الجزَّة الذَّهبية بمساعدة بحارة سفينته آرغو، ولكن بعد سلسلة من المغامرات المضنية التي تقشعر لها الأبدان. ولولا مساعدة إِبنة آيتيس ميديا، التي كانت تتمتَّع بقوى سحرية، لكان الفشل حليفه، فقد وقعت ميديا صريعة سهم ايروس وأحبت جيسون بجنون واستخدمت كل ما لديها من عزم وتصميم للفوز بقلبه. واستطاعت إِغواءه لدرجة أَنَّه عرض عليها أن يصحبها معه عندما يعود إِلى اليونان بشرط مساعدته في الحصول على الجزَّة الذهبية. ورغم كل الحب الذي كانت تكنّه له، إِلاَّ أن ميديا لم تكن راغبة في الاستسلام لما يمكن أن يكون خديعة لإِغوائها. وقالت له: «أيها الغريب، أَقسمْ بآلهتك وفي حضرة أصدقائك بأنك لن تجللني بالعار عندما أكون وحيدة وغريبة في بلدك»[20]. وأقسم جيسون بأن يجعل منها «زوجته الشرعية» بمجرد وصوله إِلى اليونان. وبما أن قَسَماً كهذا كان يعتبر ضمانة يمكن الوثوق بها كالعقود المكتوبة في عصرنا الحالي، فقد وفت ميديا بما كان يترتب عليها بأن غنت للتنين حتى غلبه النعاس بينما كان جيسون يأخذ الجزَّة الذَّهبية من على الشجرة.

لم تنته القصة نهاية سعيدة، فلم يكن بإِمكان جيسون تغيير طبيعته الوصولية. فقد كان مصمّماً منذ البداية، على أن يصبح ملكاً لبلاده، وقد خاطر بحياته وبحياة أصدقائه بحثاً عن جلد الخروف المكسو بالذَّهب. واستغل ابنة ملك لينجب منها أطفالاً ووعدها بالزواج. وعندما عاد إِلى اليونان ووجد أَنَّه لا يستطيع ارتقاء العرش هرب مع ميديا إِلى كورينث. وشرع هناك في التقرّب من ابنة الملك كريون، لكنه لم يخبر ميديا عما ينويه إِلاَّ بعد أن وافق الملك على

تزويجه من ابنته. وعندما ذكرته ميديا، والأسى يعتصر فؤادها، بقسمه المقدَّس في كولشيس، برر جيسون فعلته بقوله أن وضع أولادهما سيكون أفضل لأن عروسه الجديدة كانت تتمتّع بصلات اجتماعية وسياسية في كورينث أفضل مما تتمتّع به ميديا. وكان العزاء الوحيد الذي قدَّمه لها هو بعض الذَّهب والطلب من أصدقائه أن يحسنوا وفادتها.

صمَّمت ميديا على الانتقام. وفي لفتة بارعة جديرة بالمناسبة، حاكت ثوباً بديعاً مصنوعاً من قماش ذهبي أشبعته سماً، وقدَّمته هدية للعروس المرتقبة. فرحت الشابة المسكينة بالثوب الرائع ووضعت القماش البرَّاق على جسدها، ثم جدلت الإِكليل الذَّهبي على شعرها لتلاقي ميتة شنيعة. وأتمت ميديا انتقامها بأن قتلت أبناءها لتهرب بعد ذلك طائرة في عربة يجرها تنين حصلت عليها عن طريق السحر. أَمَّا جيسون، فقد ألقى بنفسه فوق سيفه ومات أمام عتبة داره.

لقد وعد ذهبُ جزَّة آيتيس جيسون بالقوة. وقد حصل جيسون عن طريق هذه القوة على أميرة وعدته بالعرش. لكن الذَّهب، في النهاية، كان هو الذي قضى على عروسه وعلى مستقبله.